الفصل السابع

الرقابة الشعبية بالتوازن والتواقف على الحكم وآلياته في الإسلام

تشكلت أدوات ووسائل الرقابة الشعبية على الحكم وآلياته في الإسلام من عدة أنواع ومستويات منها: (١) الوجوب الشرعي للرقابة الدائمة للفرد والجماعة بمختلف الوسائل(أ) شرعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم (ب) شرعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في السنة (٢) المساجد ومنظمات الوقف الإسلامي (٣) الأحزاب والجماعات المعارضة للحكم: (أ) حزب الخوارج (ب) حزب الشيعة (ج) الحزب العباسي (د) حزب القرامطة (٤) الفرق الفكرية والمذهبية: (أ) فرقة الخوارج الفكرية (ب) فرقة المرجئة (ج) فرقة المعتزلة (٥) الأدوات الشعبية والوسائل الجماهيرية للإعلام والصحافة : (أ) الشعر (ب) المقالات السياسية والاجتماعية (ج) المناظرات والمجادلات (د) الكتب والمصنفات.

(١)الوجوب الشرعي للرقابة الدائمة للفرد والجماعة بمختلف الوسائل:

يختلف النظام الإسلامي للحكم في جعل الرقابة الشعبية فرضا واجبا على كل فرد وجماعة للقيام به في كل وقت وفي كل مكان ومع كل إنسان لمقاومة المظالم وإزالة المفاسد وإصلاح الأخطاء وتصحيح الانحرافات عن كل نهج قويم أو قانون عام أو عرف سائد. وقد جاء الأمر بوجوب رقابة المسلمين كمواطنين أفرادا وجماعات تحت أحكام مختلفة غير أنه تركز تحت مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما يخدم المصلحة العامة في الحق والعدل والخير نذكر منها بعض ما جاء في الكتاب والسنة لأهميتها في إرساء المعارضة الدائمة للمنكرات والمفاسد والبواطل في المجتمع وفي شرعية قيام الأحزاب السياسية وغيرها من المنظمات الأهلية بأمر دستوري قرآني موجب دون موافقة سلطة دنيوية

(ا)شرعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم :

وردت كلمة "معروف" في (٣٨) ثمانٍ وثلاثين آية أما كلمة "منكر" فقد ذكرت في (١٦) ست عشرة آية. أما عبارة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) فقد ذكرت في سبع آيات من القرآن الكريم وهي كالتالي:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾آل عمران (١٠٤).

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ آل عمران (١١٠) .

﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ آل عمران (١١٤).

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ التوبة (٧١).

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ الأعراف (١٥٧).

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ الحج (٤١).

﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ لقمان (١٧).

(ب) شرعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في السنة النبوية وأقوال الأئمة:

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: سمعت رسول الله(ﷺ) يقول: «من رأى منكم

منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الإيمان».

و عن حذيفة(ﷺ) قال: قال رسول الله(ﷺ) «والذي نفسي بيده لتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه، ثم تدعونه فلا يستجيب لكم».

وعن عرس ابن عمير الكندي(ﷺ) قال: قال رسول الله(ﷺ) «إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كمن شهدها».

وعن أبي سعد الخدري(ﷺ) قال: قال رسول الله(ﷺ) « إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر».

وعن جابر (ﷺ) قال: قال رسول الله (ﷺ) «سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى سلطان جائر، فأمره ونهاه، فقتله».

قال رسول الله(ﷺ): « إن الله عزَّ وجلَّ ليبغض المؤمن الضعيف الذي لا دين له»، فقيل له: وما المؤمن الذي لا دين له؟، قال: «الذي لا ينهى عن المنكر».

عن رسول الله(ﷺ) قال: «لا تزال أمتي بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وتعاونوا على البر والتقوى، فإذا لم يفعلوا ذلك نُزعت منهم البركات وسلَّط بعضهم على بعض ولم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء».

عن رسول الله(ﷺ) قال: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم انه يخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل» رواه مسلم.

وعن ابن مسعود(رضي) قال: قال رسول الله(ﷺ): «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم، فلم ينتهوا، فجالسوهم وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله تعالى قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وسليمان وعيسى بن مريم» .. ثم

جلس –وكان متكئا– فقال: «لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على حق أطرّ» أي تعطفوهم وتردوهم.

(٢) المساجد ومنظمات الوقف الإسلامي:

"قام الإسلام على تقرير السيادة الإلهية وسيطرتها على أمور المسلمين الدينية والدنيوية سيطرة تنهض على مبادئ الحق والعدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبذلك فرض الإسلام على كل مسلم أن يشترك في الحياة العامة للجماعة ونشاطها السياسي ، وهو نشاط ينبغي أن يقوم على مبادئ الدين ومقاصده السامية ."

فقد كان المسجد في المجتمع الإسلامي منبرًا ومركزًا سياسيًا وثقافيًا وتعليميًا واجتماعيًا للشعب حفظ للمواطنين تماسكهم وتمسكهم بالحقوق الأساسية في الحرية والمساواة والعدالة والتعاون والتشاور والتراحم حين يجمعهم المسجد على قدم المساواة عدة مرات في اليوم للعبادة والتحاور والتعلم والتشاور في أمور حياتهم يصف الدكتور شوقي ضيف دور المساجد في كتابه (تاريخ الأدب العربي)بقوله:"كما نشطت الخطب الدينية نشاطا عظيما في المساجد فقد كانت تعقد حلقات الوعاظ والقصاص وكان الناس يتحلقون من حولهم في ما يشبه احتفالات الأعياد، وكان منهم الرسميون الذين تعنيهم الدولة للخطابة في أيام الجمع ومنهم غير الرسميين وهم الجمهور الأكبر. وكانوا يستمدون في وعظهم وقصصهم من القرآن الكريم والحديث النبوي وقصص الأنبياء والمرسلين، ومنهم من كان يقرأ القرآن الكريم ويفسره، وكانوا يعنون بعون الضعفاء والمساكين واليتامى وبالجهاد وحرب الأعداء مستعينين في ذلك بأعمال البر. وكثير منهم كان يذهب مع الجيوش المجاهدة للوعظ في الحرب وبث روح الحماس الدينية في نفوس المجاهدين."

"ولكن إذا كانت الخطابة الدينية أخذت تضعف على لسان الولاة والخلفاء فإنها أينعت في بيئة الوعاظ والنساك ممن كانت تزخر بهم مساجد بغداد والبصرة والكوفة، وكانوا أخلاطًا من الزهاد والفقهاء والمحدثين والمتكلمين، وكان بعضهم يلم بمجالس الخلفاء لوعظهم، وأحيانًا كانوا يستقدمونهم فيعظونهم حتى يبكوهم، بما يوقعون في نفوسهم من خشية عقاب الله وبما يصورون لهم من زفير جهنم، وهم في تضاعيف ذلك يزجرونهم عن ظلم الرعية واقتراف المعاصي والسيئات."

"كما كانت المساجد دائمًا مفتوحة ليلًا ونهارًا، ودائمًا يوجد فيها الناس للصلاة وتوجد فيها حلقات التدريس، فكان الواعظ يختار أي وقت يشاء لموعظته وأن كان عادة يجعلها تالية لبعض الصلوات، وأخذت تنشأ منذ أوائل العصر طبقة جديدة من الوعاظ كانوا يسمون بالمذكرين، ويسمى مجلسهم باسم مجلس الذكر أي ذكر الله وتسبيحه، وكانوا من الصوفية ، بل كان خطباؤهم ووعاظهم ممتلئين صلاحًا وتقوا وورعا، وكانوا يعظون الناس في المساجد وفي الزوايا خالطين الخوف بالرجاء مستشهدين ببعض أى القرآن وبعض الحديث وقد يفسرونها ويعلقون عليها مضيفين من حين إلى حين عباراتهم الصوفية التي تأسر العقول والقلوب."

كما كانت منظمات الوقف الإسلامي هي أكبر المنظمات الأهلية بعد المسجد في المجتمع التي تمتعت باستقلالية عن الدولة الإسلامية وأجهزتها وقامت بدور كبير في حماية حقوق المسلمين ورعايتها من خلال إقامة المؤسسات التعليمية ونشر الثقافة الإسلامية وتخريج كبار الفقهاء والقضاة والمثقفين الذين يصنعون ويوجهون الفكر والرأي العام لدى جمهور المسلمين على كافة المستويات الاجتماعية." وكانت الأوقاف تخصص لأغراض عديدة في خدمة المواطنين لتصون كرامتهم وترعى مختلف شؤون حياتهم وحقوقهم مثل: بناء المدارس والمآتم وإصلاح الجسور والطرقات وبناء الفنادق للمسافرين والرابطات للمجاهدين ومنح البذار مجانا للمزارعين والفلاحين وتجهيز البنات الفقيرات إلى أزواجهن وفكاك الأسارى وكساء وإطعام أبناء السبيل ورصف الطرقات وإقامة دور للمجانين والمجاذيب والمجاذيم ورعاية الحيوانات وتوفير مياه الشرب لعابري السبيل وإعارة الحلي والزينة للعامة والفقراء في الأعراس ودفع أجور الحمامات للمحتاجين ومكافأة طلاب العلم وتوفير ملاجئ لإقامة وإطعام النساء اللواتي التي يقع بينهن نفور وبين بعولتهن إلى أن يزول النفور بينهم وبين أزواجهن".كما جاء في كتاب (الحضارة العربية الإسلامية)للدكتور شوقي أبو خليل .

(٣)الأحزاب والجماعات المعارضة للحكم:

كانت الحزبية والرأي المعارض في الإسلام قد تبلورت في شكل فرق وجماعات

ومذاهب فكرية وفقهية وسياسية تمارس النقد والاعتراض والمعارضة بالرأي والكلمة المكتوبة والشفوية كما استخدمت القوة أحيانًا والعصيان المسلح في بعض الأحيان، ولكن المعارضة في الإسلام التزمت بالشريعة الإسلامية "دستور الأمة" كما تراها حسب فهمها الفقهي والمذهبي وسوف نستعرضها مقتبسة بأفكارها وأحداثها مع بعض التصرف من كتابي الدكتور محمد عمارة(الوسيط في المذاهب والمصطلحات الإسلامية)و(الإسلام وفلسفة الحكم).

"ومن أعظم مميزات الفكر الإسلامي أنه بعد وفاة الرسول(ﷺ) تبلور في حزبية سياسية حول ولاية الحكم ومصالح الناس (الإمامة) وتكون مذهبيًا وعقائديًا واجتهاديًا في شكل فرق وملل مختلفة تدور كلها حول معارضته في نظام الحكم في الغالب وتأييد النظام الحاكم في النادر وهو ما يؤكد أن الدين الإسلامي ليس دينا لاهوتيًا لأنه قد جعل جميع النظريات والمذاهب والعقائد للحركات والفرق والمفكرين تدور حول فلسفة الحكم ومصالح الناس حتى وإن تلبست بمفاهيم عقدية أو شرعية أو فلسفية وخاصة حين لا تكون المعارضة قادرة على المواجهة المباشرة بسبب بطش الحكام وجورهم. فكانت المعارضة الفكرية لأسس الحكم وفلسفته هي الطريق الأمن في معظم الأحوال كما أن مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان يتسع لجميع أقوال المعارضة و تحركاتهم". فالأحزاب في الإسلام تستمد شرعية إنشائها ووجودها من الشريعة الإسلامية "الدستور الإلهي" دون حاجة لموافقة أي سلطة وضعية لحاكم بويع بالشورى أو كان مغتصِبًا للحكم لأن حق التعبير عن الراي والرأي الآخر امراً بمعروف أو نهيا عن منكر قد جعله الإسلام فريضة على كل مواطن.

(ا)حزب الخوارج:

"كانت حركات المعارضة السياسية في الإسلام سلمية حتى أواخر عهد الخليفة الثالث عثمان حينما انقلبت إلى فتنة كبرى وتمرد عنيف أدى إلى اغتيال الخليفة ونهب داره نشأ بعدها أول حزب ثوري في الإسلام وصف بالخوارج. وقد اجتمع الخوارج على مبادئ سياسية منها: "الثورة المستمرة" بالخروج على الحكم الجائر وأن الخلافة

تكون لمن تجتمع فيه شروطها سواء كان عربيًا أو أعجميًا وسواء كان قرشيا أو غير قرشي وأنهم مع الشورى والاختيار والبيعة كأهل السنة وضد نظرية "النص والتعيين" التي يقول بها الشيعة كما انحازوا إلى حرية الإنسان واختياره ضد الفكر الجبري وقالوا بصدق وعيد الله للعاصي دون تخلف الوعد والوعيد لأي من الأسباب كما قالوا بوجوب إقامة فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن منكر ولو بالثورة لتغيير المنكر وإزالة نظم الجور والفساد.

فحاربوا مع الإمام علي ضد معاوية ثم انقلبوا عليه في حروب طاحنة حتى فني منهم الكثير واغتاله احدهم ثم حاربوا مع عبد الله بن الزبير ثم انقلبوا ضده. وحين لقي الزبير مصرعه وجدوا أنفسهم أمام بني أمية الذي قتلوا منهم الآلاف "بالتهمة والظنة". ثم انشقوا إلى سبع وعشرين فرقة من الجماعات المتناحرة، كل جماعة تكفر الأخرى فنبذوا طريق الثورة السافرة واتبعوا أسلوب التنظيم السري واشتهر من هذه الفرق: الأزارقة والنجدات والإباضية والصفرية. واستطاعت الإباضية وهي أكثر الفرق اعتدالًا وأقربها إلى أهل السنة إلى إقامة دولة لها في عمان وحضرموت فترة من الزمن."

(ب)حزب الشيعة:

"ظهر حزب الشيعة بعد وفاة الرسول حينما شايع بعض الناس مبايعة الإمام علي لخلافة المسلمين وهو اتجاه تنامى لاحقا وتحول إلى فلسفة دينية لتنظيم سلطة الدولة في إمامة آل البيت بدعوى إلهية ووصية نبوية مع منحهم العصمة في أشخاصهم بخلاف فكرة الشورى والمبايعة بالانتخاب ورغم أن شيعة الإمام علي خلال حربه مع بني أمية قد انقلبوا عليه ولقبوا بالخوارج إلا أن أتباع حزب الشيعة وقفوا دائمًا مع الحركة العلوية لآل البيت فادعوا مناصرة الإمام الحسين حتى استشهد ثم خرجوا مع الإمام زيد بن علي في ثورته على الحكم الأموي ومنكراته ثم ناصروا الحركة العباسية في الثورة على الأمويين والإطاحة بحكمهم وفي كل مرة كان أنصار هذا الحزب يعانون من الاضطهاد والقتل والتشريد. غير أنهم استطاعوا أن يقيموا لهم بعض الدول في إيران والمغرب واليمن ومصر والبحرين. وهذا الحزب انقسم إلى ثلاث فرق رئيسية

تجمع بين الغلو والاعتدال وهي: الغالية والإمامية والزيدية وتتفرع الغالية إلى إحدى وعشرين حركة أما الإمامية وهي أكبرهما فتتفرع إلى ستة وعشرين حركة غير أن الزيدية وهي أكثرها اعتدالا تفرعت إلى ست حركات رئيسية انتشرت في اليمن منها حركة "السليمانية" التي ترى أن الإمامة شورى بين الخلق لا بين المسلمين ويصح انعقاد الإمامة برجلين فقط من خيار المسلمين. وإذا تتبعنا فقط المعارضة التي قادتها الفرقة الزيدية من الحزب الشيعي في التاريخ الإسلامي لأدهشنا تطور الفكر السياسي والعمل الحزبي لدى المسلمين بالمقارنة إلى شعوب العالم وأممه في ذلك الزمان. فالإمام زيد بن علي بن الحسين إمام الزيدية وفيلسوفها وفقيهها وثائرها الأول تبنى الأصول الخمسة للمعتزلة في التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومعظم هذه الأصول الخمس مجملة مبادئ سياسية واجتماعية أعلنها عند ثورته في الكوفة ضد الدولة الأموية أيام الخليفة هشام بن عبد الملك في عشرينيات القرن الثاني للهجرة ومن هذه المبادئ السياسية كما نذكرها الآن في مجرى لها هي:

(١)الالتزام بكتاب الله وسنة رسولهﷺ.

(٢)الجهاد ضد السلطة الظالمة وأعوانها.

(٣)نصرة المستضعفين في الأرض.

(٤)إنصاف المحرومين الذي أجحف بهم الظلم الأموي.

(٥) العودة إلى نهج الإسلام في التسوية بين الناس في قسمة الفيء (توزيع الأموال والثروة العامة).

(٦)إغلاق المعسكرات النائية التي جعلت الدولة منها مناف للمناوئين لها.

(٧)نصرة آل بيت الرسول(ﷺ) الذين استأثر الأمويون دونهم بالخلافة والسلطان».

"وبعد أن هزمت ثورة زيد بن علي واستشهد هو وأغلب الذين صمدوا معه في القتال استمرت معارضة أنصاره وتواصلت ثوراتهم ضد الدولة الأموية ثم ضد

الدولة العباسية بعد أن زال حكم الأموية. ففي عام ١٢٦هـ ٧٤٤م ثار أنصار الزيدية بقيادة يحيى بن زيد بن علي ضد حكم الخليفة الأموي الوليد في الجوزجان من بلاد همدان وبعد هزيمة يحيى واستشهاده ثارت الزيدية في الكوفة بقيادة عبد الله بن معاوية ابن عبد الملك بن جعفر بن ابي طالب سنة ١٢٧هـ ٧٥٤م في عهد آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد وفي سنة ١٤٥هـ ٧٦٢م ثارت الزيدية في المدينة المنورة بقيادة النفس الزكية محمد بن عبد الله بن الحسين ضد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور. وبعد قمع هذه الثورة واستشهاد قائدها تواصلت وقائعها في البصرة وما حولها بقيادة أخيه إبراهيم إلى أن هزمت أيضًا. وفي خلافة المأمون العباسي ثارت الزيدية في بلاد الطالقان بخراسان بقيادة الإمام الزيدي محمد بن إبراهيم بن طباطبا ١٩٩هـ ٨١٤م وبعده تولى إمامتهم محمد بن محمد بن زيد ثم انتقلت منه إلى محمد بن القاسم بن عمر ابن علي بن الحسين . وفي سنة ٢٥٠هـ ٨٦٤م عادت الزيدية إلى الثورة بالكوفة خلف إمامها يحيى بن عمر بن الحسين. وفي طبرستان نجحت ثورتهم في أن تقيم لهم دولة استمرت ٧٥ عامًا ابتداء من سنة ٢٥٠ هـ ٨٦٤م. ومن المؤرخين من يدخل (ثورة الزنج) التي قادها علي بن محمد في ٢٧٠هـ بالعراق في زمرة الثورات الزيدية وهي الثورة التي أقامت دولة وحاربت الخلافة العباسية لأكثر من ٢٠ عامًا. أما أشهر ثورات الزيدية التي أقامت أكبر دولة وأطولها عمرا فهي الثورة التي قادها إمامهم الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين والتي أسست دولتهم في اليمن سنة ٢٨٨هـ ٩٠١م وهي التي توالى على حكمها واحد وسبعون إمامًا زيديًا كان آخرهم المنصور بالله محمد البدر التي أطاحت به وبالإمامة الزيدية ودولتها الثورة اليمنية في ٢٦ من سبتمبر ١٩٦٢م."

(ج)الحزب العباسي:

"منذ تأسيس الدولة الأموية (٤١-١٣٢هـ)(٦٦١-٧٥٠م) أصبحت شيعة آل البيت من علويين وعباسيين في صفوف المعارضة التي عانت من الاضطهاد الأموي الشيء الكثير ولم يكن للعباسين طموح معلن في الخلافة ولا وجود ظاهر في الدعوات والثورات .وقد بايع العباسيون الإمام العلوي ،النفس الزكية محمد بن عبد الله بن الحسين في المؤتمر الذي عقدته المعارضة بمكة للنظر فيمن يكون بديلا لبني أمية في

حكم المسلمين أثناء اضطراب أمور الدولة الأموية في أواخر عهدها. وكانت الدعوة سرية لآل البيت لا تحدد اسم الإمام المرشح وإنما كانت تدعو لبيعة الرضا من آل محمد ، ولم يكن يعلم المبايعون شخص الإمام الذي تعقد له البيعة السرية علويًا هو أم عباسيًا. فلما استلم الإمامة سرا محمد بن علي بن عبد الله ابن العباس من محمد ابن الحنفية عند دنو أجله بسبب انعدام المؤهلين من العلويين حول التنظيم السري لصالح التيار العباسي،وأظهر العباسيون براعة فائقة في التنظيم السري وإدارته واختاروا اثنى عشر نقيبا عرفوهم بمن يكون الإمام وأحاطوهم بأسرار الدعوة، ويليهم النظراء لهم وعددهم اثنا عشر لخلافة النقباء ثم الدعاة وهم سبعون داعيًا يليهم دعاة الدعاء وعددهم ستة وثلاثون داعيًا يدعون الناس في رفق وستر كاتمين اسم الإمام. ولم يكن الدعاة من عامة الناس بل كانوا على درجة من الثقافة واستخفوا وراء مهنة التجارة وبذل الأموال ولاقوا السجن والقتل والتمثيل. وكانت لهم الدراية والفراسة والحنكة في اصطياد الأتباع والموالين بمقتضى منهاج واضح للدعوة يعبر عن المعاني السامية والقيم الأصيلة للإسلام في بناء المجتمع والدولة. فواكب العمل العسكري الدعوة السياسية حتى سقطت الدولة الأموية تدريجيا.فاستولى العباسيون على الحكم في سنة ١٣٢هـ. غير أن الحزب العباسي وقع تحت النفوذ الخراساني الشعوبي المعادي للعرب الذي لم تبرأ منه دولتهم إلا بنكبة البرامكة على عهد هارون الرشيد، كما أنها انقلبت على شيعة البيت العلوي ولم تحقق الآمال الشعبية التي علقها الناس عليها إذ إنها لم تختلف عن الدولة الأموية."

(د)حزب القرامطة:

"القرامطة واحدة من أهم وأخطر وأشهر الفرق الباطنية الإسماعيلية الشيعية التي استمرت مائة عام ما بين حزبًا ودولة وأشهر دعاتها حمدان قرمط الذي ظهر في العراق. وكان القرامطة يتجهون في الدعوة إلى مذهبهم الذي يقوم على تأويل الشرائع والمفاهيم الإسلامية وفي الارتقاء بالمدعوين عبر مراتب عده هي: التزويق والتأنيس والتشكيك والتدليس والتأسيس والخلع والسلخ، وقد استقطبت الدعوة القرمطية سائر العناصر والعصبيات المقهورة في سواد العراق من جراء تسلط الأتراك. فانخرط

في صفوفها أهل السواد "الأرياف" والأكراد وجفاة الأعاجم وجفاة العرب وطائفة "الزنج" من شرق أفريقيًا الذين جلبوا للزراعة والفلاحة في منطقة البصرة وطائفة "الزط" من فقراء الهنود الذين جلبهم الحجاج للفلاحة والزراعة .ومعظم هؤلاء الجفاة هم من الصناع والمهنيين والحرفين في المدن أو من الذين فقدوا أراضيهم بسبب الإقطاعيات الزراعية أو من المسرحين من الجيش العباسي الذين أسقطوا من ديوان العطاء "المالية".واعتمد القرامطة على تنظيم حركتهم سرا بواسطة "أساتذة" العمال "ونقباء" المهن والحرف مما جعل البعض يقول بظهور النقابات العمالية في الإسلام على يد القرامطة مع أن البعض يؤكد ظهورها في الإسلام قبل ذلك.ولقد بدا ظهور القرامطة في الكوفة ثم انتشر مذهبهم في اليمن والبحرين واليمامة ودخلت دولهم في صراعات مسلحة مع كل من الدولتين العباسية والفاطمية، فهاجمت جيوشهم أجزاء عديدة من الشام والعراق والحجاز، حيث قتلوا الحجيج بمكة ودنسوا بيت الله الحرام وانتزعوا من الكعبة الحجر الأسود الذي احتفظوا به مدة واحد وعشرين عامًا. كما هاجموا مصر الفاطمية عدة مرات.

والقرامطة في الفكر السياسي والاجتماعي تيار ثوري اشتراكي في إطار الفصائل الإسماعيلية الباطنية. ولقد استهوت مبادئهم كما يقول أبو حامد الغزالي "الطبقات العاملة وأهل الصنع والحرف".وهم في المجتمعات التي أقاموها قد تدرجوا في الوصول إلى نظام "الاشتراك" في الثروات والأموال. كما ينسب إليهم إباحة الاشتراك في النساء من أعدائهم الإسماعيلية. وكان النظام السياسي في دولهم أقرب إلى النظم الجمهوري، رغم قيام مذهبهم على الوصية والوراثة والنص والتعيين للإمام المعصوم."

(٤)الفرق الفكرية والمذهبية:

"تميز الإسلام كشريعة وعقيدة شاملة للحياة الإنسانية بحيوية وثراء، ناشئ عن احترامه لحقوق الإنسان وحرياته، مما نتج عنه نشوء مئات الفرق والجماعات والمنظمات والمذاهب والملل التي تتصدى لمشاكل الإنسان اليومية.وهذه الفرق والجماعات والملل تلتقي وتفترق وتشترك وتصطدم بعضها البعض في كثير من نقاط

الاتفاق والاختلاف غير أن اغلبها تهتم بما يعانيه الإنسان على أرض الواقع حتى وإن اكتست أفكارها الظاهرة بعقائد لاهوتية أو خزعبلات فكرية، فمعظمها قد يؤيد أو يعارض أو يوازن بين مواقف سياسية للحكام وللقوى المعارضة أو المحكومة فهي بمثابة منظمات أهلية أو مراكز بحثية تمارس دورها الرقابي على السلطة الحاكمة أمرًا بمعروف ونهيا عن منكر بل إنها قد تندفع أحيانًا في الصراعات الحزبية للقوى المعارضة للحكم وسوف نختار بعض النماذج منها فيما يلي على سبيل المثال فقط."

(أ) فرقة الخوارج الفكرية:

كل حركة فكرية أو سياسية مغالية في تطرفها ومواقفها تكون لها محاسن ومساوئ في آن واحد وخاصة حينما تكون رائدة لمجال معين في عصرها. فحركة "الخوارج" تناولت ببساطة وسذاجة البحث في أصول الدين وفروعه كتكفير مرتكب الكبيرة والقول بخلوده في النار، لأنهم بإسراعهم إلى تكفير الخلق لأدنى سبب أثاروا أذهان الباحثين إلى التساؤل عن حقيقتي الكفر والإيمان، وعن درجات المعاصي وأنواعها. فإن لم يقدموا للفكر الإسلامي دقة في النظر الموضوعي العلمي فقد حركوا هذا الفكر وشغلوه بأبحاث كلامية أضحت مع الأيام مضرب الأمثال في التمحيص والتدقيق. ومما لا ريب رفيه أن آراءهم تؤول في نهاية المطاف إلى الصبغة السياسية التي دارت حول الإمامة وشروطها، واتجهت إلى مفترق طريق: أحدهم تكفير والآخر وجوب الخروج على السلطان الجائر. ولعل أفضل آرائهم في الإمامة أن الخليفة لا يُنَصَّب إمامًا إلا بانتخاب حر صحيح يقوم به عامة المسلمين،ومتى حاد عن إقامة الشرع قتل أو عزل.وقد حملهم هذا التفكير على أن يروا الخلافة في البيوت جميعا، وليست لقريش دون سائر القبائل، ولا للعربي دون الأعجمي، فالجميع فيها سواء، وتطبيقًا لهذا المبدأ اختاروا عبد الله بن وهب الراسبي أمير للمؤمنين ولم يكن قرشيا".

وقد تعددت فرق الخوارج، وكان من أسباب كثرتهم وتنوعهم المناظرات التي جرت بينهم وبين خصومهم من كبار الصحابة وعلى رأسهم الإمام علي(ﷺ) التي أثرت تأثيرًا كبيرًا في تطوير مذهبهم وفي ظهور مذاهب أخرى.

(ب)فرقة المرجئة:

"إذا كان الإرجاء بمعنى التأخير فإن اسم "المرجئة" أطلق على هذه الفرقة لأنهم يؤخرون العمل عن النية وعقد القلوب، فيفصلون بين الإيمان والعمل، فالإمهال والتأخير عندهم هو إرجاء الأمر إلى الله كي يعلم في النهاية من انحرف عن الحق ومن كان أقربه إلى الصراط المستقيم. ولئن خاصمت الخوارج كلا من علي ومعاوية فإن المرجئة أثرت موقفًا وسطًا وأرجئت كلا إلى الله ،فإن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه فكان موقف المرجئة من الناحية السياسية حياديًا، حملهم على أن يأخذوا ببعض الأصول الاعتقادية التي كانت وسطا بين رأي الغلاة ورأي المقصرين، وهكذا انتقلوا من الحياد السياسي إلى الحياد الأصولي العقدي. فوقفت موقفا وسطا بين الحرية والجبرية في أفعال الإنسان.

وقد أثارت "المرجئة" بتياراتها العديدة الاضطراب في فهمها وتقديرها" ولكنها نشأت سياسية ارتبطت بقضايا السياسة، سواء فيما اتصل بالخلافة مباشرة أو ما تعلق بموقف الدولة الأموية من الشعوب غير العربية التي دخلت الإسلام". فالمرجئة رغم مسايرة بعض تياراتها للسلطة أحيانًا فإن تيارات منها قد وقفت من السلطة موقفا مقاوما بالسلاح-ومدافعا عن حقوق المسلمين في العدل والمساواة . "ففي خراسان عام ١١٠هـ عندما دخل كثير من أهلها الإسلام وسقطت عنهم الجزية وقل الخراج بسبب ذلك ،ساء ذلك ولاة بني أمية فأصروا على فرض الجزية عليهم بحجج واهية مخالفة للإسلام تؤول تأويلًا شكليا مفهوم عدم الفصل بين الإيمان والعمل بالنسبة للشعوب الداخلة في الإسلام. فيشترط الوالي في رسالته: "فانظر من اختتن وأقام الفرائض وحسن إسلامه وقرا سورة من القرآن فارفع عنه خراجه". فهذه شروط تعجيزية لمن يدخل الإسلام إذا كيف يصبح مسلمًا كاملًا بين يوم وليلة فالختان مثلًا يصعب تطبيقه على الكبار في ذلك الوقت. إن تفسير بني أمية السياسي المتعسف المغرض في عدم اعترافهم بإسلام الشعوب بسبب عدم الفصل بين الإيمان المباشر والعمل المرجوء هو من أجل استمرار فرض الجزية للحصول على الخراج منهم. وهذه السياسة هي نقيض لفكر المرجئة وهنا يصبح الإرجاء "بمعنى تأخير العمل عن الإيمان والفصل بينهما موقفًا فكريًا سياسيًا يعارض موقف الدولة الأموية، بل يصبح

فكرًا ثوريًا يتحدى تلك المفاهيم التي ابتدعتها الدولة كي تجعل الإيمان والكفر مسائل يستفتى في صحتها وفسادها عمال الخراج بدلًا من أن تكون رقابتها والاطلاع عليها من الأمور التي لا يعلمها إلا الله". ولما أصر بنو أمية على الظلم تمرد المسلمون الجدد قرب سمرقند وفي بخارى وفي البصرة مما دفع بالثورة المسلحة للمرجئة أيام هشام بن عبد الملك سنة ١١٦هـ ثم أيام الوليد بن يزيد ولكنهم هزموا على يد مروان بن محمود الذي رفض مطالبهم القائلة: "بأن يعود الأمر شورى وأن يغير الولاة وأن تلغى الشروط وأن يشترك الناس في اختيار الولاة". وقتل بعض قادتهم المشهورين."

(ج)فرقة المعتزلة:

"نشأت هذه المدرسة الفكرية عن مدرسة "أهل العدل والتوحيد" في البصرة واختلفت معها فقط في أصل واحد هو "المنزلة بين المنزلتين". فاستطاعت هذه المدرسة تجسيد العقلانية الإسلامية في بلورة علوم الحضارة العربية والفلسفة الإسلامية في "علم الكلام" وسط تحديات فكرية وسياسية وعملية من فلسفات وديانات الآخرين ومن تيارات داخلية لبعض الاتجاهات الدينية القاصرة أو الخاطئة. وتحدد نسق الفكر المعتزلي في "الأصول الخمسة" ذات الأبعاد السياسية في الدولة والمجتمع الإسلامي. ولو تصفحنا "الأصول الخمسة" للفكر المعتزلي بأبعادها السياسية فقط لما لها من تأثير على الحكم والإدارة في الدولة الإسلامية كرقابة شعبية أداتها الفكر والثقافة النابعة من الدستور الشرعي للدولة والمجتمع تبين لنا الآتي:

فالأصل الأول هو (العدل): "ويعني في فكر المعتزلة، تقرير حرية الإنسان واختياره في ميدان الأفعال الإنسانية المقدورة للإنسان، ومن ثم تقرير مسؤولية الإنسان عن أفعاله وعن نتائجها، والأمر الذي يجعل حسابه وجزائه على أفعاله عدلًا إلهيًا لا جور فيه. ذلك أن الفكر الجبري الذي ينفي حرية الإنسان واختياره، كان يستخدم آنذاك لتبرير التحولات السياسية التي أخرجت الخلافة السياسية من إطار الشورى التي تجسد الحرية الإنسانية إلى دائرة الملك "العضود" الذي هو "وراثة" تنتقص من حرية الأمة في تقرير نظامها السياسي وعلاقة الحاكم بالمحكوم في دولتها وقواعد توزيع السلطة الإدارية والثروة المالية بين رعيتها".

أما الأصل الثاني فهو "التوحيد" وليس له بعد سياسي غير أنه كان محاولة لتنقية فكر الفلسفة الإسلامي من تأثرات المذاهب والتصورات الفلسفية والدينية الخاطئة عن مفهوم الذات الإلهية.

أما الأصل الثالث فهو (الوعد والوعيد): "ويعني استحالة تخلف "وعد" الله للمؤمنين الطائعين بالنجاة والنعيم. "ووعيده" للكافرين والعصاة بالخسران والجحيم. فهو يربط بين "الإيمان" و"العمل" الذي يترجم عن هذا الإيمان". الأمر الذي يعني إدانة أهل الظلم والجور الذين حاولوا يومئذ الإفلات من هذه الإدانة بواسطة فكر "الإرجاء" الذي كان يكتفي "بالإيمان" مرجئًا "العمل" إلى يوم الدين. فكان هذا الأصل الوعد والوعيد قد كان هو الآخر رفضا للكفر الذي رام أن تفلت النظم الجائرة من الإدانة في هذه الحياة الدنيا. "مما يعني أنه يحرص على المقاومة والرفض للأعمال الظالمة والسياسات الخاطئة في الحكم والإدارة.

أما الأصل الرابع فهو (المنزلة بين المنزلتين): "ويعني رفض موقف الخوارج الذي كان يحكم به "إيمان" مرتكب الكبيرة. ولذلك اعتبر المعتزلة مرتكب الكبيرة "فاسقا" وقالوا: إنه في منزلة ثالثة بين منزلتي "الكفر والإيمان" وإنه فالكبائر مخلد في النار بدرجة دون درجات الكافرين. السياسية من ظلم وجور وأنانيه وفساد التي نشأت عن تغير الحكم الإسلامي من "الشورى" إلى "الملك العضود" قد فجرت جدلا واسعا بين الفرق الإسلامية حول "مرتكب الكبيرة" بالنقد والتقييم الشرعي حسب موقف كل فرقة.

والأصل الخامس للمعتزلة هو "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر": "وهو أكثر أصول المعتزلة ارتباطا بالفكر السياسي الذي صاغوه لأنهم يرون ضرورة الاهتمام بأمر الأمة والمجتمع والدولة ووجوب الاشتغال بجلب المصالح ودفع المفاسد عن الشعب وتأييد العدل والحق ومعارضة الجور والظلم وتنظيم التأييد والمعارضة في الأمة أي الجماعة التي تنهض بأداء هذه الفريضة الكفائية الاجتماعية الإسلامية. أما وسائل تغيير الجور والعجز والفسق فقد كان لهم موقفًا وسطًا بين الفرق الإسلامية فهم يشترطون لاستخدام القوة في عملية التغيير لنظم الجور، التحقق من أنها نظم

جور ومنكر واستنفاذ السبل السلمية الأخرى للتغيير، والإعداد الذي يصل حد التمكن ليكون النصر مضمونا حتى لا تضيع الجهود والطاقات في التمردات التي لا تأتي إلا بمزيد من الجور والويلات كما يشترطون اتفاق القوى الساعية إلى التغيير على "إمام" (رئيس الدولة) يختارونه بالشورى والبيعة. ولذلك فقد عارضوا دولا وأعانوا أخرى وقادوا ثورات وأيدوا أخرى بمختلف الوسائل والممارسات السياسية.

(٥) الأدوات الشعبية والوسائل الجماهيرية للصحافة والإعلام :

إذا كانت الصحافة ووسائل الإعلام الأهلي تعتبر أداة ديمقراطية للرقابة الشعبية على سلطة الدولة في العصر الحاضر فإن الحضارة الإسلامية قد مارست ذلك قبل مئات السنين من خلال الأدب والشعر العربي والمناظرات والمحاورات والملاسنات من هجاء ومديح وغيرها من الأدوات الإعلامية والثقافية النشيطة لمختلف قوى المعارضة وقوى السلطة. كما نستعرضها فيما يلي بإيجاز ومثال:

أ)الشعر العربي : "الشعر ديوان العرب كما يقال، إذ لا توجد أمة في العالم تمتلئ لغتها بالشعر والشعراء كما تمتلئ بهما اللغة العربية كما أن موضوعات الشعر العربي قد شملت تقريبا جميع جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والمادية. فمواضيع الشعر العربي شملت وصف الأحداث والوقائع وتحليلها ونقدها والدعوة للأفكار والمذاهب والحركات السياسية ومعارضتها. كما كان هناك شعر ذاتي وشعبي وواقعي وفلسفي وديني وشعر للزندقة والمجون والغزل والخمريات واللهو والتسلية والهجاء والمديح والزهد والتصوف وشعر إنساني وحماسي للوطن والقيم الإنسانية والأخلاقية وشعر تعليمي وتاريخي وشعر وصفي للكثير من مظاهر الحضارة وأدواتها وغيرها من المواضيع.

يقول الدكتور شوقي ضيف في كتابه القيم(تاريخ الأدب العربي): " طبيعي أن يؤثر الإسلام في موضوعات الشعر خلال العصور، وهو تأثير يقوى ويضعف حسب نفسية الشعراء، إذا كان بينهم من تعمقه الإسلام ومن لم يتغلغل إلى أعماقه. على أنهم جميعا كانوا يستظلون بظلاله، وكان من حولهم الوعاظ والنساك يذيعون في مختلف الأجواء عبير وعظهم ونسكهم، سواء في المساجد الجامعة أو في مقدمات الجيوش

الغازية أو كانوا ما يزالون يحدثون الناس عن البعث والثواب والعقاب ونعيم الجنة وعذاب النار داعين دعوة واسعة إلى التقوى والزهد في متاع الدنيا.وترامت هذه المواعظ ومن القرآن الكريم وأحاديث الرسول وأقوال الصحابة الأولين أشعة كثيرة نفذت إلى نفوس الشعراء وانعكست في أشعارهم على اختلاف موضوعاتها. وقد مضى غير شاعر يردد فكرة الأثم في القتل وعقاب الله لقتل النفس المؤمن وأخر يستغل فكرة الحلال والحرام. والمديح يتحول في كثير من جوانبه إلى تصوير الفضيلة الدينية في الممدوح. ووثق هذا التصوير في مديح الخلفاء والولاة أن الحكم والدين كانا مرتبطين ارتباطا لا تنفصم عراه ،فمضى بعض الشعراء يتحدثون عن تقواهم وإنهم يقيمون ميزان العدالة السماوية بين الرعية.ونشب صراع حاد بين الأمويين من جهة والخوارج والشيعة من جهة ثانية في الحاكم الأعلى للمسلمين وما ينبغي أن يتحلى به من صفات دينية.وعلى نحو ما تأثر المديح بالإسلام ومثاليته الروحية تأثر الهجاء ،إذا اخذ الشعراء يهجون خصومهم بانحرافهم عن الدين ،فأطالوا في وصفهم بالفسوق والبغي والطغيان ودائما يرمي شعراء الشيعة الأمويين بالظلم وانتهاك الحرمات وتعطيل أحكام الدين وابتداع ما لم يأت به كتاب ولا سنة .واشتد الهجاء بتأثير العصبيات ولم يكد ينجو منه خليفة ولا والٍ ولا شريف ،بل حتى القراء كان يتعرض لهم الشعراء وخاصة إذا رأوهم يداجون أولي الأمر ،فكانوا يرمونهم بالنفاق وأنهم ليسوا صادقين فيما يظهرون من تقوى وصلاح.

ولعلنا لا نبعد إذا قلنا: إن شعر الحماسة كان أقوى في تأثره بالإسلام من شعر الهجاء والمديح ،إذ كان ينظم أكثره في الجهاد ،ومعروفا انه كان دائما في صفوف المحاربين قراء وقصاص ووعاظ يحثونهم على الاستشهاد في سبيل الله حتى يفوزوا برضوانه. ومن ثم تحولت بعض القطع الحماسية التي نظمت إلى مواعظ خالصة :فالشاعر يزهد في الدنيا ومتاعها الفاني بما يذكر من هلاك الأهل ،ويدعو إلى التقوى في السر والخفاء مذكرا باليوم الآخر وما ينبغي أن يتخذ له من ذخرا الجهاد والذب عن دين الله ،وبيع النفس في محاربة أعدائه. لقد كانت أشعار الأطراف السياسية المختلفة تغمس غمسا في العقيدة الدينية. وكان شعر من حاربوهم يسيل بالدعوة

للاستبسال في الحرب وجهاد هذه الفرقة التي زاغت في رأيهم عن طريق الهدى".

"وكان هناك نوع من الشعر الشعبي يصور ما كانت عليه الرعية من تعاسة وبؤس، فالخلفاء والوزراء والأمراء وذوو الوجاهة ومن لحق بهم من بعض المغنيين والشعراء يعيشون في النعيم وأدواته ووسائله مستمتعين بالحياة دون أن يبذلوا أي جهد ودون إن يحتملوا أي عناء، على حين ترزح عامة الشعب تحت أثقال البؤس والمرض جائعة منه، غير آمنة من العبث والطغيان، وكان طبيعيًا أن يكثر الشعراء الذين يصورون ما يتجرعونه ويتجرعه الشعب من الفقر والحرمان في البؤس والتعاسة."

"والحق أن الإسلام أثر أثرا واسعا في نفوس الشعراء ،وهو أثر مازال يتعمق نفرا منهم حتى انقلبوا وعاظا يعظون الناس ويذكرونهم باليوم الآخر وما ينتظرهم من الثواب والعقاب ،وهم في أثناء ذلك يتحدثون عن الموت والدنيا ومتاعها الزائل مصورين طريق النجاة وأن يقوم على التقوى والعمل الصالح ومجانبة كل خلق رديء مثل الكبر والبخل والخيانة والتحلي بكل خلق كريم من مثل التواضع والجود والأمانة".

"ثم انظر إلى فطاحل الشعراء في القرن الأول والثاني مع شدة أطماعهم عند ملوك زمانهم وخوفهم منهم، ومع ذلك كله لم يمنعهم عظيم الطمع والخوف، والشاعر مادي على الغالب، والسلطة من خلفهم والسيوف مشهورة على رؤوسهم أن جاهروا بالحق ونصروه وجاهدوا الباطل وفضحوه، خذ من الفرزدق إلى الكميت إلى السيد الحميري إلى دعبل إلى ديك الجن إلى أبي تمام إلى البحتري إلى الأمير أبي فراس الحمداني صاحب الشافية:

الدين مختزم والحق مهتضم وفي آل رسول الله مقتسم

إلى آخر القصيدة، بل لكل واحد من نوابغ شعراء تلك العصور القصائد الرنانة والمقاطيع العبقرية في مدح أئمة الحق والتشنيع على ملوك زمانهم بالظلم والجور وإظهار الولاء لأولئك والبراءة من هؤلاء، فلقد كان دعبل يقول: إني أحمل خشبتي على ظهري منذ أربعين سنة فلم أجد من يصلبني عليها، وكان قد هجا الرشيد

والأمين والمأمون والمعتصم ومدح الصادق والكاظم والرضا وأشعاره مشهورة وفي كتب الأدب والتاريخ مسطورة، هذا كله في أيام قوة بني أمية وبني العباس وشدة باسهم وسطوتهم فانظر ماذا يصنع الحق واليقين بنفوس المسلمين واعرف هنالك حق الشجاعة والبسالة والمفاداة والتضحية". كما يقول محمد حسين آل كاشف الغطاء في كتابه "عقائد الشيعة".

(ب) المقالات السياسية والاجتماعية:

"يقول الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه(معالم الحضارة الإسلامية): أسهمت الكتابة إسهامًا مبكرًا في الإصلاح الاجتماعي والتنويري السياسي ومحاربة كل أنواع المظالم التي كان يوقعها الحكام المستبدون والرؤساء الطغاة بالمواطنين خلال العصور الإسلامية. وقد قام كتاب أحرار بإنشاء المقالات (الرسائل) التي تستهدف إصلاح المجتمع من الناحية السياسية والاجتماعية، ويقوم أسلوب الحكم، وتوطد أركان الأمن، وتحارب الغلاء، وتحمل على ظلم القضاة وتستنكر فداحة الضرائب، وتشهر بمصادرة أموال الناس والحملة على النفاق، وتدين كل حاكم مستبد كابت للحريات مستحل للحرمات".

"إن أمامنا كاتبين كبيرين من أحرار الكتاب هما أبو بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمداني، لم يكتبا لرئيس، ولم يلتحقا بديوان وانما عاش كل منهما من فيض قلمه، ومن خصب ثقافته على اختلاف بينهما في العمر واتفاق لهما في نباهة الشأن."

فالخوارزمي يكتب مقالا (رسالة) في شأن والٍ ظالم" ورد علينا فلان (اسم الوالي) ونحن نيام نوم الأمنة، وسكارى سكر الثروة ،ومتكئون على فراش العدل والنصفة، فما زال يفتح علينا أبواب المظالم ،ويحتلب فينا ضرعى الدنانير والدراهم، ويسير في بلادنا سيرة لا يسيرها السنور في الفار، ولا يستخيرها المسلمون في الكفار ،حتى افتقر الأغنياء ،وانكشف الفقراء، وحتى ترك الدهقان ضيعته، وجحد صاحب الغلة غلته. وحتى نشف الزرع والضرع وأهلك الحرث والنسل. وحتى أخرب البلاد بل أخرب العباد، وحتى شوق إلى الآخرة أهل الدنيا، وحبب الفقر إلى أهل الغنى ،وحتى لقب بالجراد، وكني أبا الفساد، وحتى صار الدرهم في أيامه، اقل من الصدق في كلامه،

وصار الأمن في أعماله، أعز من السداد في أفعاله، فليته إذ أوحش الرجال حصل المال، وليته إذا صيغ المال أرضى الرجال، ولكنه حرم الاثنين فأفلسا من الجهتين.

ووالله ما الذئب في الغنم بالقياس إليه من المصلحين ،ولا السوس في الخبز في الصيف عنده إلا من المحسنين، ولا الحجاج بن يوسف الثقفي في أهل العراق إلا أول العادلين ..... فإن كنا به معاقبين فقد تنقضي مدة العقاب، وتختم صيحة العذاب، وإن كان الفلك غلط به، والزمان أخطا فيه فقد يراجع الغالط حسه، ويحاسب المخطئ نفسه، فيجبر ما كسر ويتلافى ما بدر".

أما بديع الزمان الهمداني فيكتب رسالة "مقاله" في شان ملك ظالم سفاح "إن ذلك السلطان سماء إذا تغيم لم يرج صحوة، وبحر إذا تغير لم يشرب صفوه، وملك إذا سخط لم ينتظر عفوه، فليس بين رضاه والسخط عرجة، كما ليس بين غضبه والسيف فرجة، وليس من وراء سخطه مجاز، كما ليس بين الموت والحياة مجاز.

فهو سيد يغضبه الجرم الخفي ،ولا يرضيه العذر الجلي، وتكفيه الجناية وهي إرجاف،ثم لا تشفيه العقوبة وهي إجحاف، حتى إنه ليرى الذنب وهو أضيق من ظل الرمح، ويعمى عن العذر وهو أبين من عمود الصبح.

وهو ذو أذنين يسمع بهذه القول وهو بهتان ،ويحجب بهذه العذر وهو برهان، وذو يدين يبسط إحداهما إلى السفك والسفح، ويقبض الأخرى عن العفو والصفح، وذو عينين يفتح إحداهما إلى الجرم، ويغمض الأخرى عن الحلم. فمزحه بين القد والقطع، وجده بين السيف النطع، ومراده بين الظهور والكمون ، وأمره بين الكاف والنون ، ثم لا يعرف من العقاب غير ضرب الرقاب ، ولا يهتدي من التأنيب إلا لإزالة النعم ولا يعلم من التأديب إلا إراقة الدماء".

(ج) المناظرات والمجادلات :

" كانت المناظرات والمجادلات تحتدم بين المتكلمين والفقهاء وأصحاب الملل والنحل تشغل الناس على اختلاف طبقاتهم في كثير من المساجد ، كما أن مجالس البرامكة والمأمون كانت تكتظ بهذه المناظرات والمجادلات وكان وراء مجالسهما

مجالس صغرى كثيرة يجتمع فيها الشيعة والزنادقة والمتكلمين، ويتحاورون في المسائل العقيدية وغير العقيدية ، وقد يخوضون في بعض المسائل الفلسفية على نحو ما كانت تخوض مجالس البرامكة، وبالمثل كان يتناظر الفقهاء، ومناظرة الشافعي والشيباني مشهورة.

" والمعتزلة أهم طوائف المتناظرين حينئذ، فقد وقفوا أنفسهم على جدال طوائف المتكلمين من مخالفيهم في أصولهم الخمسة. ومن المحقق أن المعتزلة والمتكلمين بعامة عنوا في هذا العصر عناية واسعة بمعرفة الأصول التي تقوم عليها براعة القول، إذ كانت صناعتهم تقوم على إحسان فن الكلام.او بعبارة أخرى فن المناظرة في المسائل الدينية والعقيدية وما يتصل بها من بعض المسائل الفلسفية والطبيعية. ونستطيع أن نجد مقدماتهم في العصر الأموي وفي مساجد البصرة والكوفة حيث كان يجتمع ممثلو الأحزاب السياسية فيتحاورون في مسائلهم وما يتفرع عنها من المسائل الدينية ويحاول هذا أو ذاك إقناع خصمه أو قهره إلى أواخر العصر الأموي ، حتى نجدهم يقيمون المناظرات ، ويجتمع الناس من حولهم ليروا من يظفر بخصمه ويقطعه عن الكلام قطعا."

" ومن الحق أنهم بسطوا بهذا الجدال وما اتصل به من مناظرة العقل العربي إلى أبعد غاية، فقد أمدوه بسيول من دقائق المعاني وخفيات البراهين ، وجعلوه عقلا جدلا ما يزال ينقب عن خبيئات الأفكار ، وما يزال يجلب من أعماقها الأعماق دررها الباهرة، وقد تعاوروا على الأشياء المشهورة يصححونها ويسددونها، وتعاور معهم كثير من معاصريهم الذين يتقنون على شاكلتهم الحوار في كل شيء."

(د) الكتب والمصنفات:

اهتم كثير من الكتاب والأدباء بالنقد السياسي والاجتماعي للمحاسن والمساوئ في الحياة السياسية والاجتماعية والعملية للناس على اختلاف طبقاتهم وفئاتهم. وكانت طريقة نقدهم أما أن تكون بعرض مقارنة للمحاسن والمساوئ أو بعرض معايير ومقاييس للقيم أو بعرض نماذج وأحوال واقعة. ويتفاوت النقد بين الشدة واللين وبين التلميح والتصريح. وسوف نعرض بإيجاز لكتابين الأول هو كتاب "المحاسن

والمساوئ" للبيهقي والثاني كتاب "أخلاق الوزيرين" للتوحيدي. وكانت أمثال هذه الكتب في تلك العصور تنسخ في دكاكين الوارقين وتباع بين الناس حسب الأحوال الاجتماعية في كل بلد.

فكتاب (المحاسن والمساوئ) "مجموعة كبيرة من المناظرات في الأخلاق والشمائل، فكل خلق أو كل شيء تعرض محاسنه ثم تعرض معايبه، وتصور المعايب والمحاسن في أخبار وأقاصيص وحكايات، تلتقي فيها الثقافات المعروفة حينئذ، وفي مقدمتها الثقافة الإسلامية والعربية حيث تكثر الاقتباسات من الذكر الحكيم والاستشهاد الدائم بالأحاديث النبوية وبعض قصص الأنبياء وبعض أقوال الزهاد. كما تكثر الأشعار والأمثال العربية وأخبار الجاهليين وأقاصيصهم المصورة لمكارم أخلاقهم أو معايبها.

وبالمثل أخبار حكام العرب وحكاياتهم على توالي الحقب من إسلاميين وعباسيين وخاصة حكام بني أمية والرشيد والمأمون، وتكثر أخبار الأعراب وأقاصيصهم. وتلقانا حكم وقصص منقولة عن الهند واليونان وفارس. وتتنوع موضوعاته ومصادره ومواده بحيث نجد قصصا عن المرأة العربية والمرأة الفارسية .

والطريف أنه عرض يجسم وجهين متقابلين في كل خلق وكل خصلة، فمثلا الصدق له محاسنه، ولهذه المحاسن أقاصيصها وله معايبه، ولهذه المعايب أقاصيصها. وبذلك يأخذ عرض هذه الأقاصيص وما يتصل بها من الأخبار والأقوال والأشعار شكل مناظرات أدبية لا تعتمد على الجدال والحوار بالدليل ضد الدليل والحجة العقلية ضد الحجة العقلية، وإنما على الحوار والجدال بالخبر ضد الخبر والشعر ضد الشعر والقصة ضد القصة والحكاية ضد الحكاية. والخلاصة أن الكتاب يفيض بأحوال العصور العربية السياسية والاقتصادية والحضارية وخاصة العصر العباسي."

أما كتاب (أخلاق الوزيرين) لأبي حيان التوحيدي فيشتمل على مسالتين الأولى نقد حاد شديد يتسم بسلاطة اللسان في ذم أخلاق وزيرين في عصره فلم يترك فيهما شيئا إلا قطعه تقطيعا وأما المسالة الأخرى فهي مجموعة حكايات وأحاديث تتعلق بأخلاق الشخصيات السابقة من ولاة الأمور ووجهاء القوم على مر العصور يعرض

فيها المعايب التي أشار إليها غيره والمقاييس الأخلاقية التي يجب أن ينظر إليهم بها .

ومن هنا جاء حديثه عن "الكرم واللؤم في أخلاقهما ،والنقص والزيادة ،والورع والانسلاخ ،والرزانة والسخف، والكيس والبله، والشجاعة والجبن، والوفاء والغدر، والسياسة والإهمال، والاستعفاف والنطف، والدهاء والغفلة، والبيان والعي، والرشاد والغي، والخطأ والصواب، والحلم والسفه، والخلاعة والتماسك، والحياء والقحة، والرحمة والقسوة."

وهذا مقطع من رسالة ناقدة وجهها كاتب سابق لأحد الوزراء اقتبسها التوحيدي في كتابه ليؤكد بها طريقة نقده وصحتها . تقول الرسالة : "حدثني بأي شيء تحتج إذا طولبت بشرائط الرياسة التي انتحلتها وأكرهت الناس على تسميتك بها ،أتدري ما الرياسة؟ الرياسة أن يكون باب الرئيس مفتوحا ومجلسه مغشيا ،وخيره مدركا ، وإحسانه فائضا، ووجهه مبسوطا ، وكنفه مزورا، وخادمه مؤدبا، وحاجبه كريما، وبوابه رفيقا، ودرهمه مبذولا، وخبزه ماكولا، وجاهه معرضا، وتذكرته مسودة بالصلات والجوائز، وعلامات قضي الحوائج.

وأنت فبابك مقفل ،ومجلسك خال، وخيرك مقنوط منه، وإحسانك منصرفا عنه، ووجهك عابس، وبنانك يابس، وكنفك حرج، وخادمك مذموم، وحاجبك هرار، وبوابك كلب، وجاهك موفور عليك، وتذكرتك محشوة بالقبض على فلان، وباستئصال فلان، وبنفي فلان، وبسم فلان، وبالدس على فلان، وبحط مرتبة فلان. إلى أن يقول: فيا مسكين استح فإنك لا مع الشريعة ولا مع الفلسفة، وقد خسرت الدنيا والآخرة."